بايديهم ثم قالوا هذه من عند الله (٣) وان هذه الامم التى ليس عندها هذه الكتب قد اغناها الله بفضل عقولها فى تدبير التجارة والبيوع وعقد الشركات وامضاء المعاهدات وادارة المنافع العامة وترتيب العقوبات وجباية الاموال وتنظيم الجيوش واعداد ما يحفظ المجد ويعلى الشأن فى السلم والحروب (٤) وان هذه الاقوال المتضاربة المتعارضة ليس لاكثرها من سبب الا منافع القضاة ومن فى حكمهم (٥) وان اعتناء كل طائفة بمذهب واحد على ما فيه من تعدد المرجحين قد فرق كلمة المسلمين منذ زمن بعيد حتى اوصلهم الى هذه الحالة (وهل منكر لها؟) بمقتضى السنة الالهية. هذا ما قلت زبدته واعدته اليوم مع شئ من التفصيل وان الأخ حفظه الله ليعلم ان هذا الموضوع لا يوفيه حقه من البيان الا مئات من الاوراق وفى ذكائه وامعانه وامعان الاذكياء غنية وكفاية. ع ز

(المنار) للمقالة بقية ومن عنده جواب من الفقهاء فليرسله الينا لننشره بعد اتمامها

آثار علمية ومدنية

مقدمة ديوان حافظ أو الشعر وفنونه وتأثيره وتحوله

يعرف قراء المنار مكانة محمد حافظ اقتدى ابراهيم فى الشعر وانه يضرب مع فحوله بكل سهم، ويسابق جياده فى كل فج، ويمتاز على السابقين الاولين بالمعانى التى جلتها الحضارة والمدنية. ويتقدم صفوف المتأخرين بالجزالة البدوية، ويودون لو تخدم اللغة والآداب بطبع ديوانه ونحن نبشرهم بان الديوان كاد يتم طبعه وتحفهم بمقدمته التى تشهد له بانه ممن اتفقت لهم الاجادة فى المنظوم والمنثور وهى — كما قال ابن خلدون — لا تتفق الا للاقل. قال حافظ واحسن ما شاء هو وشاء الاحسان:

الشعر وهو احد توأمي اللغة العربية علم وجد مع الشمس لا تعرف الانس له واضعاً . قد كمن فى نفوس البشر كمون الكهرباء فى الاجسام فلا يهتدي الى مكمنه الخاطر ولا يثير به الخيال الا اذا اثارته حركة النفس وهو من الكلام بمنزلة الروح من الجسد فلا بدع اذا عجز لسان الكون عن تعريف كنهه عجزه عن ادراك كنه الروح

ولقد عرّفه بعضهم فقال : انه نفثة روحانية تمتزج باجزاء النفوس ولا تحس به منها غير النفوس الزكية . وقال آخر انه قول يصل الى القلب بلا اذن

ولم اعثر حتى اليوم على تعريف له شاف فى كتب العرب والافرنج ومبلغ القول فيه انه ظرف الحكمة ومسرح الخيال ومغنى البلاغة وخدر الفصاحة ووعاء الحقيقة فلو انهم سألوا الحقيقة ان تختار لها مكاناً تشرف منه على الكون لما اختارت غير بيت من الشعر[1] ولو لم تكن آيات الكتاب العزيز كلها ظروفاً للحكمة واوعية للحقيقة لما وجد الملحدون السبيل الى القول بانه جاء على طريقة الشعر وان كان منثوراً

وخير الشعر ما سبق دبيبه فى النفس دبيب الغناء ثم سبح بها فى عالم الخيال فان كان غزلاً مر بها على مسارح الظباء وكُنُس الآرام ، وطاف بها على اودية العشق والغرام ، فأراها سراب الارواح ترفرف على نواحيها غاديات رائحات فى مروج الهوى ، سائحات سارحات فى رياض المنى ، طائرات سابحات فى اجواء الهيام ، حافات بأرواح أولئك الذين قضوا صرعى العيون ، وشهداء الجفون ، وأراها جميلاً وهو يرنو الى بثينته ، والمجنون وهو يضرع ليلاه ، ثم ردها بعد ذلك وقد اذابها رقة وأسالها

(١) هذه الجملة الاخيرة مقتبسة من كلام الاستاذ الشيخ محمد عبده

شوقاً . وان كان حماماً طار بها الى مكامن البلاء ، ومساقط القضاء ، يشق بها صفوف الحوادث ، وكتائب الكوارث ، حتى اذا راضها على مصافحة الحمام ، ومكافحة الايام ، انتقل بها الى المطامع فخبب اليها ثم البتار ، ومعانقة المطار ، وأراها عبد بنى عبس وهو يسابق المنية الى اختطاف الارواح وينادى :

لي النفوس وللطير اللحوم ولا وحش العظام وللخيالة السلب

ثم ردها بعد ذلك وهى تنظر الى فرند القرضاب ، نظر المحب الى ملمى الرضاب ، وان كان نفراً سما بها الى عرش الجلال فأراها الشريف متربعاً فى ناديه يطالع فى صحيفة أنسابه ، وجريدة احسابه ، وهو يشم من لحيته ريح الخلافة ويخاطب صاحبها بقوله :

مهلاً امير المؤمنين فاننا فى دوحة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت ابداً كلانا فى المفاخر معرق
الا الخلافة ميزتك فانني انا عاطل منها وانت مطوق

وان كان حكمة خرج بها عن ذلك العالم المجبول بالاذى وآسى عندها بين الوجود والعدم فروح عنها وهون عليها ثم سرى بها من بيت العظة والاعتبار واراها شيخ المعرة وابو الطيب بجانبه ، يستصبح كل منهما بنور صاحبه ، واسمعها الاول وهو يقول :

ويدلني ان الممات فضيلة كون الطريق اليه غير ميسر

والثانى وهو ينشد :

الف هذا الهواء اوقع فى الاذ نفس أن الحمام مر المذاق
والاسى قبل فرقة الروح عجز والاسى لا يكون بعد الفراق

ثم ردها وهي تنظر الى هذا الدهر وابنائه نظرَ الممعود الى غدائه

وان كان زهداً طرح عن منكبيها رداء الطمع ، واستل من جنبيها خيوط الجشع ، واراها الشيخ أبا العتاهية مضطجعاً في بيته ، يتغنى ببيته :

الناس في غفلاتهم ورحى المنية تطحن

ثم غادرها وهي تكتني من دنياها باحراز مسكة الحوباء ، وتجتزئ منها بشربة من الماء ،

وان كان مدحاً مثّل لها الممدوح يسحب مطارف الحمد ويجرّ ذيول الثناء وقد كساه مادحه حلة لا تبلى واحلّه المحلّ الذي لا ترقى اليه همة الزمان وأراها صاحب مسلم بن الوليد الذي يقول فيه :

موحّد الرأي تنشق الظنونُ له عن كل ملتبس فيها ومعتقد

يلقى المنية في امثال عدتها كالسيل يقذف جلموداً بجلمود

وقد شفّت له الآراء عن مواطن الصواب وانشقّت له حجب الظنون عن مكامن الغيب ومثله لها في البيت الاول وهو يسري ورأيه يضيء اضاءة الكهرباء وفي البيت الثاني وهو يدفع الموت بالموت ويدرأ الحتوف بالحتوف اذا شمر له الموت عن ساعديه شمر ، واذا تمر له الحمام تمر .

وان كان استعطافاً مثّل لها النفس الموتورة وهو يحلّل من حقدها ويقلم من اظفار ضغنها وقد مال بها الى جانب العفو والتجاوز وأراها سيف الدولة في ديوان امرته ، وابو الطيب جالس بحضرته ، ينشده قوله :

ترفق أيها المولى عليهم فان الرفق بالجاني عتاب

ولم تجهل أياديك البوادي ولكن ربما خفي الصواب

وقد سكت عنه الغضب وهبت من شمائله نسائم الرفق وجال في

محياه ماء الصفح

وان كان وصفاً جسّم لها الشيء الموصوف حتى انها لتكاد تهمّ بلمسه واثبت لها ان الشعر تصويرٌ ناطق وأراها ذلك السيف الذي يقول فيه أبو الطيب :

سلّه الركض بعد وهن بنجد فتصدى للغيث اهل الحجاز

وهو يخطف البصر قبل اختطاف الهام، ويلمع لمعان شقة البرق طارت فى الغمام، أو ذلك السيف الذى يقول فيه ابن دريد :

يُري المنايا حين تقفو إثره فى ظلم الاحشاء سبلاً لا تُرى

وهو كأنه سراج يضيء لمزريل فيهتدى به الى مكامن الارواح

وان كان تشبيهاً جلّى لها وجه الشبه فى مرآة الخيال فأشكل عليها الامر ولم تدر ايهما المشبه بالآخر واراها بُزاة ابن المعتز التى يقول فيها :

وفتيان سروا والليل داج وضوء الصبح متهم الطلوع

كأن بُزاتهم امراء جيش على اكتافهم صدأ الدروع

وهى كأنها أولئك الامراء وأولئك الامراء وهم كأنهم تلك البزاة

ذلكم تأثير الشعر السرىّ فى النفوس ولقد بلغ من تأثيره ان بيتاً منه اذكى نار الحروب بين العرب والفرس وهو قول ليلى بنت لكيز من قصيدة

غلّلوني قيّدوني ضربوا ماسمس العفة منى بالعصا

وان بيتين منه أتيا على امة بأسرها وهما قوله :

لا يغرنك ما ترى من اناس ان تحت الضلوع داء دويّا

فضع السيف وارفع الصوت حتى لا ترى فوق ظهرها اموياً

وقد ترجل لبيت منه جيش بالاندلس وهو قول ابن هانئ :

من منكمُ الملك المطاع كأنه تحت السوابغ تُبَّع فى حِمير

وبرز أحد ملوك الاندلس من خلف الستار حين سمع قول مادحه :

انظرونا نقتبس من نوركم إنه من نور رب العالمين

(البقية تأتى)

« عفة نساء العرب وبلاغتهن »

ذكرنى بيت ليلى بنت لكيز الذى اورده محمد حافظ افندى فى مقدمة ديوانه ان اطرف القراء بخبر عفة هذه الفتاة وقوة عزيمتها وبلاغة قولها وسحر بيانها وطالما كنت احدث الاخوان بان ابلغ بيت قالته العرب هو قول هذه الفتاة (غلّلونى) البيت . على ان البلاغة هي كما قال استاذنا مفتى الديار المصرية هي ان يبلغ المتكلم بكلامه ما يريد من التأثير فى النفوس واصابة مواقع الوجدان منها

وبجمل خبر الفتاة ان اباها وهو من بنى وائل نزل بها فى بعض منازل إياد بالقرب من بلاد فارس وكانت ليلى هذه بارعة الجمال فتزلف بخبرها الى ملك الفرس رجل من بحوت اياد على ان اياداً كانوا مرذولين عند العرب لمجاورة الاعاجم ومخالطتهم فاخذها الملك من ابيها غصباً فجعلت عليه حتى برؤية وجهها فبذل لها فى سبيل رؤيته الوان المشتهيات ، وروّعها بضروب العقوبات ، فأبت عليه ان يراها ثم خيّرته بين ان يقتلها او يعيدها لابيها فارتأى بعد ذلك ان يفسد عفتها بالترف والنعيم فكف عن مراودتها وامر بان ترفّه وتنعم بالنعيم وما كان نعيم الاجنبي الا بؤساً عليها لعزة نفسها وأنفتها . ومن كلامها فى تحريض قومها على قتال الفرس وحماية عرضهم بانقاذها :

ليت للبرّاق عيناً فترى ما ألاقى من بلاء وعنا
يا كليبا وعقيلا اخوتى ياجنيداً اسعدونى بالبكا
عذّبت اختكم ياويلكم بعذاب الشُّكر صبحاً ومسا
غلّلونى قيّدونى ضربوا (ملمس العفة) منى بالعصا
يكذب الأعجم ما يقربنى ومعي بعض حشاشات الحيا
قيّدونى غلّلونى وافعلوا كل ما شئتم جميعاً من بلا
فأنا كارهة بفيكم ويقينُ الموت شيءٌ يرتجى
يابني كهلان يا أهل العلى أتدلون عليّ الاعجما
يا إياداً خسرت ايديكمُ خالط المنظر من برد عمى
فاصطباراً وعزاءً حسنا كل نصر بعد عسرٍ يرتجى
اصبحت ليلى يغلّى كفها مثل تغليل الملوك العظما
قل لعدنان هديتم شعروا لبني مبغوض تشمير الوفا
واعقدوا الرايات فى اقطارها واشهروا البيض وسيروا الى ضحى
يا بني تغلب سيروا وانصروا وذروا الغفلة عنكم والكرى
احذروا النار على اعقابكم وعليكم ما بقيتم فى الدُّنا

وقد كان لهذا ما كان من الحروب بين العرب والفرس وانتهى الامر بقتل ملك الفرس وتخليص الفتاة . فليعتبر بهذه العفة والشهامة نساؤنا بل وشبان المصريين المتبجحون بأنهم ابناء عصر المدنية ، وما بلغوا فى الفضيلة بعض ما بلغت تلك البدوية ، قد افسدت الشهوات بأسهم فسنوا وجنوا وتهتكوا حتى بلغنا عن شاب من اذكيائهم انه قال فى بغيّ انكليزية انها حببت اليه بجمالها ودلالها الاحتلال ، وتلك نهاية التلاشى والانحلال